١- تعريف علم التصوف.

٢- تعريف التصوف.

٣- نشأة علم التصوف.

٤- لمحة عن تاريخ علم التصوف.

٥- التصوف بين الحاجة إليه ونكرانه.

أولاً: أهمية التصوف.

ثانياً: ما السبب في أن التصوف لم يظهر إلا بعد عصر الصحابة والتابعين.

ثالثاً: التصوف المفترى عليه.

رابعاً: حاجتنا إلى التصوف.

خامساً: منهج التصوف.

٦- موقف التشريع الحكيم من التصوف ورأي العلماء فيه.

١- تعريف علم التصوف

- علم التصوف من أهم العلوم الإسلامية المتعددة وقد عرفه كثير من علمـــاء أهل التصوف ومما ورد في تعريفاتهم ما يلي:

١) قال ابن عجيبة رحمه اللّه تعالى: (وهو مفسر صوفي من أهل المغرب).

(هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن مـــن الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، وأوسطه عمل، وآخره موهبة).

٢) وقال القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه اللّه تعالى: (وهو قاض مفسر من حفاظ الحديث): (التصوف علم تُعرف به أحوال تزكية النفوس، وتـــصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن، لنيل السعادة الأبدية).

٣) وقال الشيخ أحمد زروق الفاسي رحمه الله: (وهو محدث صوفي فقيه): (التصوف علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها للّه تعالى عما سواه).

٤) وقال العلامة حاجي خليفة (في كتابه كشف الظنون): هو علم يعرف به كيفية ترقي أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعاداتهم.

ثم قال:

علم التصوف علمٌ ليس يعرفـــه ... إلا أخو فطنة بـــالحق معـــروفُ

وليس يعرفه من ليس يـــشهده ... وكيف يشهد ضوءَ الشمس مكفوفُ

٥) قال ابن ذكوان رحمه الله (وهو قاضي القضاة بالأندلس) معرفاً علم التـــصوف ببيت من الشعر فيقول:

علـــمٌ بـــه تـــصفية البـــواطن ... من كدرات النفس في المـــواطن

- قال العلامة المنحوري رحمه الله (وهو العالم المحدث الثقة) في شـــرح هـــذا البيت: (التصوف علم يعرف به كيفية تصفية الباطن من كدرات النفس أي عيوبها

وصفاتها المذمومة كالغل والحقد والحسد والغش وحب الثناء والكبر والرياء والغضب والطمع والبخل وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء، لأن علم التصوف يطلع على العيب والعلاج وكيفيته، فبعلم التصوف يُتوصل إلى قطع عقبات النفس والتنـزُّهِ عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل إلى تخلية القلب عن غير اللّه تعالى، وتحليته بذكر اللّه تعالى).

٦) وقال أبو الحسن بن أبي ذر رحمه الله (وهو العالم الصدوق) في كتابه (منهاج الدين) أنشدونا للشبلي رحمه الله (وهو دمشقي من فقهاء الحنفية وهو من كبار القضاة):

علم التصوف علم لا نفاد لـه ... علم سَنِيٌّ سماوي رَبُوبي
فيه فوائد للأرباب يعرفها ... أهل الجَزالَة والصنع الخصوصي

- من هذه الأقوال نجد أن التصوف علم قائم بذاته وهو من أشرف العلوم، وهو علم يختص بعلم الباطن وفقهه، وإصلاح القلب وتزكيته، وتطهير النفس وتهذيبها، ويسعى إلى الوصول إلى مقام الإحسان، ويستحسن هنا أن نستشهد بقول الأستاذ عبد الباري الندوي (وهو أستاذ الفلسفة الحديثة في الجامعة العثمانية بحيدر آباد سابقاً):

(فإن أبى شخص أن يعترف بالتصوف كعلم بعينه، وفن بذاته، فَلِمَ لا ينفر ويشمئز من المصطلحات الدينية الأخرى من تفسير ومفسر، وتجويد ومجود، وكلام ومتكلم، وغيرها)

(بين التصوف والحياة، عبد الباري الندوي).

٢- تعريف التصوف

- عندما نتحدث عن تعريف علم التصوف لابد من أن نلم بتعريف التصوف بالذات.

وهناك الكثير من العلماء الذين تحدثوا في تعريف التصوف نذكر منهم ما يلي:

- يقول الشيخ السهروردي رحمه الله (وهو العلامة والفيلسوف المنطقي البارع في أصول الفقه): (أقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول).

- وقال الشيخ أحمد زروق رحمه الله (المالكي الصوفي الفقيه المحدث) في كتابه قواعد التصوف: (وقد حُدّ التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين مرجع كلها صدق التوجه إلى اللّه وإنما هي وجوه فيه).

- إذاً للتصوف تعريفات كثيرة أذكر منها ما يلي:

١ - قال الإمام الغزالي رحمه اللّه تعالى:

(التصوف: هو تجريد القلب للّه تعالى واحتقار ما سواه، أي تخليص القلب للّه تعالى، واعتقاد ما سواه اعتقاداً أنه لا يضر ولا ينفع، فلا يعول إلا على اللّه، فالمراد باحتقار ما سواه اعتقاد أنه لا يضر ولا ينفع، وليس المراد الازدراء والتنقيص) (كتاب حكايا الصوفية، أبو اليسر عابدين).

٢ - وقال الشبلي رحمه اللّه تعالى:

(التصوف: ضبط حواسك، ومراعاة أنفاسك) (معيد النعم ومبيد النقم، عبد الوهاب سبكي).

٣ - وقال أبو الحسن الشاذلي رحمه اللّه تعالى:

(التصوف: تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية) (نور التحقيق، حامد صفر).

٤ - وقال الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه اللّه تعالى:

(التصوف هو الوقف مع الآداب الشرعية ظاهراً وباطناً).

وقال أيضاً: (التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف)

(الموسوعة اليوسفية، يوسف خطار محمد).

٥ - وقال الإمام الجنيد رحمه اللّه تعالى:

(التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء للّه على الحقيقة، واتباع الرسول ﷺ في الشريعة).

(التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر محمد الكلاباذي)

- وأقول: وبعد أن تربيت على يدِ أشياخ التصوف الحقيقيين، وسلكت مسلكهم في تربية نفسي وأنُفسِ من خدمتهم من أجيال الشباب الكثيرين منذ أكثر من خمسين عاماً على هذه الطريق.

- أقول: إن التصوف هو طريق تحقيق التزكية للنفس التي ذكرت في القرآن الكريم في عدة آيات، وسبيل تحقيق مقام الإحسان الذي ذكره النبي ﷺ، هذا الطريق الذي يجب أن يسلكه كل مسلم ليكون مطبِقاً الشريعة على أكمل وجه متقيداً بالقرآن والسنة، فبالتصوف يعرف المسلم ربه حق المعرفة، فيسعى إلى تقوية علاقته به التي تجعل منه نموذجاً فذاً ومثالاً واقعياً لحقائق الإسلام والإيمان والإحسان.

٣- نشأة علم التصوف

- نزل الوحي على رسول الله ﷺ بالإسلام وأخذ الرسول ﷺ يدعو إليه وكان نزول القرآن الكريم على رسول الله ﷺ نزولاً منجماً متتابعاً مدة ثلاث وعشرين سنة، وكان الصحابة الكرام كلما نزلت آيات من القرآن تلقوها من رسول الله ﷺ وتعلموها وحفظوها وعملوا بما فيها، ثم قاموا بالدعوة إليها.

فالصحابة ﷺ أخذوا تعاليم الإسلام عن النبي ﷺ، وأخذها عنهم من صَحِبَهم من التابعين، ثم أخذها عن التابعين من صحبهم ممن سُمُّوا تابعي التابعين، وهم الذين نَحَوْا بتلك التعاليم منحى تخصصياً، فمنهم من تخصص في القرآن الكريم وما يتعلق به من علوم كالتفسير وغيره، ومنهم من تخصص بالحديث النبوي وما يتعلق به من علوم فرعية كثيرة كعلم الرواية والدراية، ومنهم من تخصص بعلوم اللغة كالنحو والصرف والبلاغة والأدب وغير ذلك، ومنهم من تخصص في علم الفقه وما يتعلق به من الأحكام الشريعة، وقد دونت هذه العلوم المنقولة واستحدثت لها أسماء ومصطلحات متعددة لم تكن في زمن رسول الله ﷺ فمن اشتغل بالتفسير سُمي (مفسراً) ومن اشتغل بالحديث الشريف سُمي (محدثاً) ومن اشتغل في اللغة سُمي (لغوياً) ومن اشتغل بالفقه سُمي (فقيهاً) أما من اشتغل بالتربية والأخلاق والسلوك في طريق الله سُمي (صوفياً).

- إذن هذه الأسماء لم تكن على عهد رسول الله ﷺ وإنما هي مصطلحات وأسماء مستحدثة للعلوم الشرعية التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ، فمن تخصص في علم من هذه العلوم أو غيرها فنسب إليه وسُمي باسمه المستحدث لا يتعارض عن تسميته مسلماً، إذْ ليس كل اسم أو وصف لم يأت في القرآن الكريم أو السنة الشريفة يحرم التسمي به بل هو جائز شرعاً فقد سمى الله سبحانه وتعالى المسلمين بأسماء عديدة السابقين الصالحين - المخبتين... وغير ذلك بأعمال اتصفوا بها واستداموا عليها.

- كذلك سُمي بعض الصحابة بأسماء نسبة إلى قبائلهم أو أوطانهم مثل سيدنا أبي ذر (الغفاري) وسيدنا بلال (الحبشي) وسيدنا سلمان (الفارسي) وسيدنا صهيب (الرومي).

- نخلص مما سبق إلى أن إطلاق التصوف والصوفي على من سلك منهج تزكية النفس في الإسلام لا يناقض ويعارض تسميته مسلماً، ولا يدل على خروج عن الإسلام وتعاليمه، ولا يثير شبهة ما، بل يدل على من أراد أن يتمسك بالسلوك الإسلامي الصحيح، والدين القويم، والتقرب من رب العالمين، كما جاء في القرآن الكريم وهدي النبي ﷺ.

- أما من أراد أن يتعرف على أصل هذا الاشتقاق فإنه سيجد أنه كثرت الأقوال فيه، ومما قيل فيه:

➢ **أولاً**: أنه من الصوف، وتصوف إذا لبس الصوف، كما يقال تقمّص إذا لبس القميص، فهذا وجه، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف، وإن لبسه بعضهم.

- هذا وأثر عن سيدنا الحسن البصري ﷺ أنه قال:

(لقد أدركت سبعين بدرياً كان لُبْسُهم الصوف) (حلية الأولياء، أبو نعيم).

➢ **ثانياً**: أنه منسوب إلى أهل الصفة المشهورين زمن رسول الله ﷺ بالتفرغ للعلم والعبادة وقد كانت حياتهم المثل الأعلى الذي استهدفه رجال التصوف في العصور الإسلامية المتتابعة.

➢ **ثالثاً**: إنه مشتق من الصف فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث حضورهم مع الله تعالى، وتسابقهم في سائر الطاعات وهو عند بعض العلماء غلط أيضاً، فإنه لو كان كذلك لقيل: صَفّيّ وعند القشيري (شيخ خراسان وكان زاهداً وعالماً بالدين): المعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف.

➢ **رابعاً**: إنه من الصفاء حتى قال أبو الفتح البستي رحمه الله تعالى (شاعر عصره وكاتبه)

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا وظنه البعض مشتقاً من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتىً صفا فصوفي حتى سُمي الصوفي

- ويشير الغزالي في كتاب عوارف المعارف إلى هذا المعنى فيقول:

(الصوفي هو الذي يكون دائم التصفية لا يزال يصفي الأوقات عن شوب الأكدار، بتصفية القلب عن شوب النفس، ويعينه على كل هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه، فبدوامِ الافتقار ينقى من الكدر، وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة وفر بها إلى ربه، فبدوام تصفيته جمعيته، وبحركة نفسه تفرقته وكدره، فهو قائم بربه على قلبه، وقائم بقلبه على نفسه. قال تعالى: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾[المائدة ٨] وهذه القوامية للّه على النفس هو التحقق بالتصوف) (ملحق إحياء علوم الدين، الغزالي)

- ويؤكد هذا المعنى الشيخ محمد أمين الكردي(وهو من كبار علماء الطريقة النقشبندية) فيقول:

(علم التصوف مأخوذ من الصفاء، والصوفي إن صفا قلبه من الكدر، وامتلأ من العبر، استوى عنده الذهب والمدر) (تنوير القلوب، محمد أمين الكردي).

➢ **خامساً**: إنه نسبة إلى الصفوة من خلق اللّه. قال العلماء في ذلك وهو غلط، لأنه لو كان كذلك لقيل صَفَوِيّ.

➢ **سادساً**: من الصوفة، لأن الصوفي مع اللّه تعالى كالصوفة المطروحة لاستسلامه للّه تعالى.

➢ **سابعاً**: مشتق من (صوفة) وذلك أن قوماً كانوا في الجاهلية يقال لهم صوفة انقطعوا إلى اللّه تعالى وقطنوا الكعبة فمن تشبه بهم من الناس سموا بالصوفية.

➢ **ثامناً**: يرى بعض المستشرقين أن الكلمة راجعة إلى أصل يوناني أو بوذي أو غير ذلك وأنها مشتقة من الأصل اليوناني (صوفا) ومعناها الحكمة وهذا رأي فاسد مدسوس لا يوجد له دليل إيجابي قطعاً.

- والذي أراه بعد عرض هذه الآراء أن المتصوفة لقب لأناس اتصفوا بصفات معينة أذكرها لاحقاً، وأن الصوفي اسم جامد أو لقب أطلق على من ينتمي إليهم ليميزه من غيره.

٤- لمحة عن تاريخ علم التصوف

- تحدث العديد من العلماء المهتمين بعلم التصوف قديماً وحديثاً عن تاريخ علم التصوف ومن هؤلاء القشيري في رسالته فقال:

(اعلموا رحمكم اللّه أن المسلمين بعد رسول اللّه ﷺ لم يَتَسَمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول اللّه ﷺ، إذ لا أفضلية فوقها، فقيل لهم ((الصحابة)) ولما أدرك العصر الثاني سمي من صحب الصحابة ((التابعين)) ورأوا ذلك أشرف تسمية، ثم قيل لمن بعدهم ((أتباع التابعين)). ثم اختلفت وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين: ((الزهاد والعباد)) ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق ادَّعَوْا بأن منهم زهاداً، فانفرد خواص أهل السنة الراعون أنفسهم مع اللّه تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم ((التصوف)) واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر بعد المائتين من الهجرة).

- ولكن كما سيأتي يبدو أن هذا الاسم كان موجوداً قبل المئتين بقليل ولكنه اشتهر بعدها، ويقول الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه تاريخ الإسلام:

(ومن المسائل التي شغلت أفكار المسلمين في ذلك العصر ((التصوف)) وذلك أن كثيراً من المسلمين الذين اشتهروا بالورع والتقوى لم يجدوا في علم الكلام ما يقنع نفوسهم المولعة بحب اللّه سبحانه وتعالى، فرأوا أن يتقربوا إليه عن طريق الزهد والتقشف وفناء الذات في حبه تعالى ومن ثم سموا ((بالمتصوفين))).

- وقال المدائني رحمه الله (وهو راوية ومؤرخ وله كثير من التصانيف عن بعض العلماء: كان رجل من العرب في زمن النبي ﷺ مسرفاً على نفسه، لم يكن يتحرج، فلما أن توفي النبي ﷺ لبس الصوف، ورجع عما كان عليه، وأظهر الدين والنسك، فقيل له لو فعلت هذا والنبي ﷺ حي لفرح بك، قال: كان لي أمانان

فمضى واحد وبقي الآخر قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣] فهذا أمان والثاني: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

- هذا وأثر عن سيدنا الحسن البصري ﷺ وكان تابعياً أنه قال:

(لقد أدركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف) (حلية الأولياء، أبو نعيم).

- كما روى عنه أنه قال: (لقيت صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يقبله وقال: معي أربعة دوانق فيكفيني ما معي) (اللمع، أبو نصر الطوسي).

- وقيل إنّ أول من تسمى بالصوفي هو أبو هاشم الكوفي الذي ولد في الكوفة وأمضى سواد حياته في الشام وتوفي سنة /١٥٠هـ/ (الفتاوى الحديثة، ابن حجر).

فقد روى عن سفيان الثوري رحمه الله (أمير المؤمنين في الحديث وسيد أهل زمانه في العلوم والتقوى) أنه قال: (لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء) (كشف الظنون، حاجي خليفة).

- وقيل إن أول من بنى دويرة التصوف بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد وهو من أصحاب الحسن البصري رحمه الله تعالى.

- ولقد ذكر أن الإمام مالك رحمه الله تعالى قال: (من تَفَقَّهَ و لم يَتَصَوَّفَ فقد تَفَسَّقَ، ومن تَصَوَّف و لم يتفقَّهْ فقد تَزَنْدَقَ ومن جمع بينهما فقد تحقَّقَ) (الشفا للقاضي، شرح ملا علي القاري).

ومن المعلوم أن الإمام مالك رحمه الله تعالى توفي سنة ١٧٩هـ في المدينة المنورة وهذا يدل على أن التصوف كان معروفاً بهذا الاسم في هذه الفترة.

- ولكن قيل إنّ أول من حدد نظريات التصوف وشرحها هو ذو النون المصري /٢٤٥هـ/ تلميذ الإمام مالك وهو أحد الزهاد العباد المشهورين.

- وأن الذي شرحها وبوبها ونشرها هو الجنيد البغدادي المتوفى سنة /٣٣٤هـ/ (التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر محمد الكلاباذي).

- (وإن من أخلد ما كتب عن التصوف والصوفية كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف للإمام العالم العارف تاج الإسلام أبي بكر محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي المتوفى سنة (٣٨٠هـ-٩٩٠م) وهو من أقدم وأدق وأنقى وأصفى ما كتب عن هذا العلم ورجاله كتبه العارف الكلاباذي في العصر الذهبي للتصوف في أوائل القرن الرابع للهجرة القرن الذي بلغ فيه التصوف كماله العلمي والفني واستكمل فيه التصوف علومه ومناهجه وآدابه وسلوكه ومقاماته).

(مقدمة لجنة نشر التعرف لمذهب أهل التصوف).

- ثم بعد ذلك ظهر العديد من علماء التصوف ومشاهيرهم وأصبح لهم طرقاً يسلكونها للوصول إلى غايتهم وانتشر التصوف في جميع أرجاء الأمة الإسلامية وعلى مر العصور والأزمنة، وفي جميع البقاع والأمكنة، حتى وقتنا الحاضر.

٥- ارتباط التصوف بالشريعة

- يظن كثير من المسلمين الذين لم يطلعوا على حقائق التصوف أن أصحاب التصوف هم من أهل البدع الخارجين عن الإسلام أو المرتدين عنه، أو البعيدين عن تعاليمه، أو المدسوسين لهدمه.

- لكن المنصف عندما يدرس حقائقهم وأهدافهم وغاياتهم وطرائقهم ويعيش في مدارسهم ويسلك سلوكهم ويتربى في كنفهم، يجد أنهم على الإسلام الحقيقي، والإيمان الكامل، فهم يتمسكون بتعاليم القرآن الكريم، وهدي النبي العظيم ﷺ، وأنهم لا يخرجون عن الشريعة قيد أنملة، وأن تعاليمهم لا تخرج عن منهج التزكية الذي ذكره القرآن الكريم، والسعي إلى مقام الإحسان الذي ذكره النبي العدنان ﷺ.

- وعندما يتدبَّرُ المسلم القرآن الكريم يجد أن هناك آيات متعددة بينت مهمة النبي ﷺ في نشر الدعوة وأنها أربع وهي:

- **أولاً**: تعليم المسلمين آيات القرآن الكريم تلاوة وعملاً وتطبيقاً.
- **ثانياً**: تزكية النفس وهي التربية الروحية.
- **ثالثاً**: تعليمهم أحكام القرآن الكريم وأهدافه ومقاصده.
- **رابعاً**: تعليمهم الحكمة وهي السلوك العملي للمؤمن في هذه الحياة مع كل المخلوقات.

من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ﴾ [الجمعة: ٢].

- ورجال التصوف قاموا بحمل هذه المهمات خير قيام، ولكن كان اهتمامهم بتزكية النفس أكثر، لأنهم وجدوها السبيل الأمثل لتحقيق المهمات الأخرى، وأنها

السبيل الوحيد لإعادة المؤمنين إلى صفاء الإسلام والإيمان، الذي كان على عهد رسول اللّه ﷺ بين صحابته الكرام الذين رباهم النبي ﷺ وزكاهم فكانوا خير أمة أخرجت للناس.

ودفعهم إلى ذلك ما حدث من تغير بعد ذلك في نفوس بعض المسلمين، بسبب الانغماس بالدنيا والشهوات والملذات إثر الفتوحات واختلاطهم بالأمم الأخرى.

- وهذا ما أشار إليه ابن خلدون في مقدمته وهو يتحدث عن علم التصوف قال: (فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة).

(مقدمة ابن خلدون، علم التصوف ص٣٢٩).

- ومن الأصول التي اعتمدوها في منهجهم الحديث الصحيح المشهور والذي جرى بين جبريل وهو في هيئة رجل أسود الشعر أبيض الثياب وبين رسول اللّه ﷺ وهو جالس مع أصحابه، هذا الحديث الذي جرى على طريقة الحوار، جبريل يسأل ويصدق وسيدنا محمد ﷺ يجيب سأله عن أركان الدين الإسلام والإيمان والإحسان ولقد اختص كل فريق من العلماء بأحد الأركان فأركان الإسلام اهتم بها أصحاب العقيدة والفقه وأركان الإيمان اهتم بها أصحاب العقيدة والكلام، والإحسان كما عرفه النبي ﷺ: «أن تعبد اللّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». (متفق عليه)

اهتم به الدعاة والمربون والمصلحون وهم أصحاب التصوف، وسعوا إلى تحقيقه ضمن برنامج مستمد من القرآن والسنة من خلال المحبة للّه ورسوله واتباع سنة رسول اللّه في كل الأحوال ومن خلال الذكر والدعوة إلى الصدق والإخلاص والاستقامة وغير ذلك.

- سئل الإمام الحافظ السيد محمد صديق الغماري رحمه اللّه عن أول من أسس التصوف وهل هو بوحي سماوي؟ فأجاب: (أما أول من أسس الطريقة، فلنعلم أن

الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي، إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي ﷺ بعدما بينها واحداً واحداً ديناً بقوله: «هذا جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم»).

وهو الإسلام والإيمان والإحسان، فالإسلام طاعة وعبادة، والإيمان نور وعقيدة، والإحسان مقام مراقبة ومشاهدة: «أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

- ثم قال السيد محمد صديق الغماري في رسالته تلك: (فإنه كما في الحديث، الدين عبارة عن الأركان الثلاثة، فمن أخل بهذا المقام (الإحسان)، فدينه ناقص بلا شك لتركه ركناً من أركانه، فغاية ما تدعو إليه الطريقة وتشير إليه هو مقام الإحسان بعد تصحيح الإسلام والإيمان).

(انتصار الطريقة الصوفية، للمحدث محمد صديق الغماري ص٦)

- هذا وإننا إذا درسنا الشريعة من خلال آيات القرآن الكريم، وما أثر عن النبي ﷺ من الأقوال والأفعال والأحوال، وما دوّن في الكتب حول ذلك نجد أنها تنقسم إلى قسمين:

➢ **أولاً**: أفعال وهيئات وأمور محسوسة كقيام وقعود وركوع وسجود وتلاوة وتسبيح وأدعية وأذكار، وأحكام ومناسك وغير ذلك وكل ذلك تكفل به أصحاب الحديث ورواته، وعلماء الفقه والشريعة -جزاهم اللّه عن الأمة خيراً- فحفظوا للأمة دينها وسهلوا لها العمل به.

➢ **ثانياً**: كيفيات باطنية كانت تصاحب هذه الأفعال والهيئات عند الأداء وتلازم الرسول ﷺ قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً، وداعياً وذاكراً، وآمراً وناهياً، وفي خلوة البيت وساحة الجهاد، وهي الإيمان والإخلاص والاحتساب والصبر والتوكل والزهد وغنى القلب والإيثار والسخاء والأدب والتقوى والورع والحياء

والخشوع والتضرع والابتهال، وإيثار الآخرة على العاجلة، والشوق إلى لقاء اللّه، إلى غير ذلك من كيفيات باطنية وأخلاق إيمانية، وسلوك إسلامي، وآداب قرآنية نبوية - هي من الشريعة بمنزلة الروح من الجسد، والباطن من الظاهر وتتدرج تحت هذه العناوين تفاصيل وجزئيات وآداب وأحكام تجعل منها علماً مستقلاً، وفقهاً منفرداً فإن سمي العلم الذي تكفل بشرح الأول وإيضاحه وتفصيله والدلالة على طرق تحصيله (فقه الظاهر) سُمي هذا العلم الذي يتكفل بشرح هذه الكيفيات ويدل على طرق الوصول إليها (فقه الباطن)، ولئن تكفل أهل الفقه والحديث والعقيدة والسيرة بعلم الظاهر، فإن أهل التصوف تكفلوا بفقه الباطن وسموا هذا الفقه بالتصوف ولو أنهم سموه بعلم التزكية أو بالإحسان أو بفقه الباطن أو بالتربية الروحية لكان بذلك أجدر وأقرب للواقع، وأبعد عن الخلاف والشقاق الذي نراه حول هذه التسمية.

- وفي هذا الموضوع يقول أبو نصر السراج الطوسي رحمه اللّه: (أنكرت طائفة من أهل الظاهر وقالوا: لا نعرف إلا علم الشريعة الظاهرة التي جاء بها الكتاب والسنة، وقالوا: لا معنى لقولكم علم الباطن وعلم التصوف، فنقول، وباللّه التوفيق.

إن علم الشريعة علم واحد، وهو اسم واحد يجمع معنيين: الرواية والدراية؛ فإذا جمعتهما فهو علم الشريعة الداعية إلى الأعمال: الظاهرة والباطنة، ولا يجوز أن يجرَّد القول في العلم: أنه ظاهر أو باطن لأن العلم متى ما كان في القلب فهو باطن فيه، إلى أن يجري ويظهر على اللسان؛ فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر، غير أننا نقول: إن العلم: ظاهر، وباطن، وهو علم الشريعة الذي يدل ويدعو إلى الأعمال الظاهرة والباطنة، والأعمال الظاهرة كأعمال الجوارح الظاهرة، وهي العبادات والأحكام، مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك؛ فهذه العبادات، وأما الأحكام فالحدود والطلاق والعتاق والبيوع والفرائض والقصاص وغيرها، فهذا كله على الجوارح الظاهرة التي هي الأعضاء، وهي الجوارح، وأما الأعمال

الباطنة فكأعمال القلوب وهي المقامات والأحوال، مثل التصديق، والإيمان، واليقين، والصدق، والإخلاص، والمعرفة، والتوكل، والمحبة، والرضا، والذكر، والشكر، والإنابة، والخشية، والتقوى، والمراقبة، والفكرة والاعتبار، والخوف، والرجاء، والصبر، والقناعة، والتسليم، والتفويض، والقرب، والشوق، والوجد، والوجل، والحزن، والندم، والحياء، والخجل، والتعظيم، والإجلال، والهيبة، ولكل عمل من هذه الأعمال الظاهرة والباطنة علمٌ وفقه وبيان وفهم وحقيقة ووجد، ويدل على صحة كل عمل منها من الظاهر والباطن آيات من القرآن وأخبار عن الرسول ﷺ علمه من علمه، وجهله من جهله؛ فإذا قلنا: علم الباطن أردنا بذلك علم أعمال الباطن التي هي على الجارحة الباطنة، وهي القلب، كما أنا إذا قلنا: علم الظاهر أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التي هي على الجوارح الظاهرة، وهي الأعضاء.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

فالنعمة الظاهرة ما أنعم الله تعالى بها على الجوارح الظاهرة من فعل الطاعات، والنعمة الباطنة ما أنعم الله تعالى بها على القلب من هذه الحالات، ولا يستغنى الظاهر عن الباطن ولا الباطن عن الظاهر، وقد قال الله ﷻ:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]

فالعلم المستنبط هو العلم الباطن، وهو علم أهل التصوّف، لأن لهم مستنبطات من القرآن والحديث غير ذلك، ونحن نذكر إن شاء الله طرفاً من ذلك؛ فالعلم ظاهر وباطن، والقرآن ظاهر وباطن، وحديث رسول الله ﷺ ظاهر وباطن، والإسلام ظاهر وباطن، ولأصحابنا في معنى ذلك استدلالات واحتجاجات من الكتاب والسنة والعقل، وشرحه يطول ويخرج على حدّ الاختصار إلى حد الإكثار، وفيما قلنا كفاية، وبالله التوفيق). (اللمع، أبو نصر السراج ص٤٣-٤٤)

- وهنا يجب أن نعلم أن الشريعة لها فقهها الظاهري وفقهها الباطني والمسلم الكامل والداعي الناجح هو من يتعلم ويتمسك ويعمل بكلا الفقهين.

فمن تعلم الفقه الظاهري وترك الفقه الباطني فهو لم يتعلم دينه كاملاً، ومن تعلم الفقه الباطني وترك الفقه الظاهري فهو لم يتعلم دينه كاملاً أيضاً.

ومن تمسك بأحدهما ونادى به عالياً دون الآخر فلا يعد دينه كاملاً.

لذلك من ادّعى التصوف و لم يتعلم الفقه الظاهري و لم يعمل به فلا يعتد به ولا يكون قدوة لغيره ولا يمثل الإسلام بكامله.

ومن ادّعى التصوف و لم يتمسك بالشريعة أي بالقرآن والسنة فليس له من الإسلام حظ ولا صلة.

- ولا أدل على هذه الحقائق من الذي ورد عن كبار علماء أهل التصوف في ذلك.

قال الإمام سهل التستري (وهو أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال): (أصولنا ستة: التمسك بكتاب اللّه، والاقتداء بسنة رسول اللّه ﷺ، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، وأداء الحقوق).

(دائرة معارف الشعب، ج٣ ص٤٨١)

وقال أبو يزيد البسطامي: (لو نظرتم إلى رجل أُعطي الكرامات حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به حتى تجدوه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود وأداء الشريعة).

(الرسالة القشيرية، القشيري ص١٣)

ويقول الجنيد: (الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ).

(أبو نعيم: حلية الأولياء، جزء ٤، ص٣٧٥)

ويقول أيضاً: (من لم يحفظ القرآن، و لم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن عملنا هذا مقيد بالكتاب والسنة). (المصدر نفسه، جزء٤، ص٣٧٣)

وقال الشيخ أبو القاسم النصر أباذي رحمه اللّه (وهو المحدث والمؤرخ، صحب الشبلي، وأبا على الروذباري، والمرتعش، وغيرهم):

(أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع ورؤية أعذار الخلائق والمداومة على الأوراد وترك الرخص والتأويلات).

(طبقات الأولياء، ابن الملقن ص٥)

وقال ابن عطاء اللّه السكندري (وهو المالكي الصوفي الواعظ المذكر، وكان رجلاً صالحاً عالماً يتكلم على كرسي ويحضر ميعاده خلق كثير، وكان لوعظه تأثير في القلوب، وكان له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطريق): (من ألزم نفسه آداب السنة نور اللّه قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ في أوامره وأفعاله وأخلاقه). (أبو نعيم: حلية الأولياء، جزء٤، ص٤٠٠)

وقال أبو حمزة البغدادي (جالس بشراً الحافي، والإمام أحمد. وصحب السري ابن المغلس، وكان بصيرا بالقراءات، وكان كثير الرباط والغزو): (لا دليل على الطريق إلى اللّه إلا متابعة الرسول ﷺ في أحواله وأقواله وأفعاله).

(مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور جزء ٦، ص٤١٩)

أما حجة الإسلام أبو حامد الغزالي فقال عن الصوفي: (إن سالك سبيل اللّه قليل والدَّعِيّ فيه كثير ونحن نعرفك علامتين له:

➢ **الأولى**: أن تكون جميع أفعاله موزونة بميزان الشرع موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصداراً وإقداماً وإحجاماً، إذ لا يمكن سلوك السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها.

➢ **الثانية**: لا يصل إليه إلا من واظب على جملة من النوافل فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض). (ميزان العمل، أبو حامد الغزالي ص١٤٥)

وقد تحدث أحد كبار العلماء عن تمسك الصوفية بالكتاب والسنة فقال: (فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد بن محمد، وغيرهم من المتقدمين ومثل الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ حماد، والشيخ أبي البيان، وغيرهم من المتأخرين، فلا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يعمل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت، وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، وهذا كثير في كلامهم).

- من كل ما ورد نخلص إلى أن التصوف يدعو إلى التمسك بالكتاب والسنة وما كان مخالفاً لهما فليس من التصوف، وإنما هو بدعة أو دس أو افتراء أو مصلحة ذاتية أو هوى نفس ممن ادعى التصوف، والتصوف منه براء.

٦- التصوف بين الحاجة إليه ونكرانه

عندما نريد التحدث في هذا العنوان لابد أن نمر على عدة مواضيع ومن أهمها ما يلي:

> أولاً: أهمية التصوف:

- عندما نريد أن نتحدث عن أهمية التصوف يجب أن نعرف أن هذه الأهمية ليست نابعة من التصوف في حد ذاته، وإنما هي نابعة من الاختصاص الذي يختص به التصوف.

- فقد بينا سابقاً أن التصوف ليس شيئاً جديداً على الإسلام، ولا منفصلاً عنه، ولا زيادة مضافة إليه: إنه اسم يعبر عن اختصاص بجانب معين من الإسلام إنه جانب مهم، هو جانب التزكية، التزكية التي هي من مهمات النبي ﷺ التي أرسله الله بها. قال تعالى مبيناً ذلك: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

- وقد أمرنا الله ﷻ في عدد من الآيات بالاهتمام بهذا الجانب في مثل قوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩].

- وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

- كما أن التصوف من جهة أخرى يسعى إلى الوصول إلى مقام الإحسان عند المسلم وهو أحد الأركان الأساسية للدين كما جاء في الصحيح من حديث جبريل مع رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». (أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ)

- وقد علمنا أن الشارع أمر الإنسان بتكاليف في خاصة نفسه ترجع إلى قسمين:

• قسم يتعلق بأعماله الظاهرة.

• وقسم يتعلق بأعماله الباطنة.

- وبلفظ آخر: أحكام تتعلق بظاهر الإنسان وأحكام تتعلق بباطنه (القلب والنفس).

- أما الأعمال التي تتعلق بظاهرة فهي نوعان:

- أوامر ونواه، **فالأوامر** المفروضة كالصلاة والصوم...

- وأما **النواهي** المحظورة كتحريم الزنى والسرقة..

- وأما الأعمال التي تترتب على القلب فهي كذلك نوعان أوامر ونواه، فالأوامر المفروضة: كالإيمان بالله وملائكته.. وكالإخلاص والتوكل والخشوع والصدق والصبر..

- وأما النواهي المحظورة، كالكفر والنفاق والحقد...

- وهذا القسم الثاني هو المعول عليه في ديننا ألا وهو أعمال القلوب لأنه مَبْنَى الأمور كلها على إخلاص النيات لرب البريات التي لا يعلم بها غيره فقد قرن اللّه سبحانه وتعالى أعمال الظاهر وسلامة الباطن فيها، لأن فساد الباطن يوجب فساد الأعمال الظاهرة، فقال سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

- وإلى ذلك أشار النبي ﷺ بقوله: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» (متفق عليه عن النعمان بن بشير ﷺ).

- لأن العمدة يوم القيامة على القلب السليم كما أخبر اللّه سبحانه وتعالى فقال:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء، ٨٨-٨٩].

- وكما أخبر سيدنا محمد ﷺ أن محل نظر الرب هو القلب، فقال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

(أخرجه مسلم في صحيحه)

- مما مر معنا نتبين أن التصوف إنما هو العلم المختص بموضوع هام هو فقه الباطن المسمى بعلم الباطن وهو الذي يهتم بالأحكام التي تتعلق بباطن الجسد وهو القلب والنفس وهو ما سماه القرآن أيضاً بالتزكية وسماه النبي بالإحسان.

- وهذا الجانب الذي اهتم به التصوف هو جانب أساسي بل هو الجانب الأهم في الشريعة لأنها تبنى عليه.

- لذلك عدّ كثير من العلماء هذا الاختصاص فرضَ عين لأن تصفية القلب ومداواته، وكبح جماح النفس عن شهواتها وتهذيبها وتزكيتها والسعي بها إلى كمالاتها، للوصول إلى مقام الإحسان من أهم الفرائض العينية وأهم الواجبات الربانية، وقد دل على ذلك كثير من آيات القرآن وسنة النبي ﷺ وأقوال العلماء والفقهاء التي تتحدث عن أعمال القلب كالإخلاص والإيمان وحسن الخلق والصدق والصبر والتوكل والإحسان والبعد عن الرياء والحقد والحسد والنفاق...

- وقد أجمع العلماء على أن الأمراض والآفات القلبية من الكبائر التي تحتاج إلى توبة مستقلة لأن أمراض الباطن كافية لإحباط أعمال العبد ولو كانت كثيرة.

- قال الفقيه العلامة الكبير ابن عابدين في حاشيته الشهيرة:

(إن علم الإخلاص والعجب والحسد والرياء فرض عين مثل غيرها من آفات النفوس كالكبر والشح والحقد... إلى أن قال: ولا ينفك عنها بشر، فيلزمه أن يتعلم منها ما يرى نفسه محتاجاً إليه وإزالتها فرض عين ولا يمكن إلاّ بمعرفة حدودها وأسبابها وعلاماتها وعلاجها فإن من لا يعرف الشر يقع فيه).

(حاشية رد المحتار، ابن عابدين)

- كما قال ابن خلدون في مقدمته: (وهذا العلم -يعني التصوف- من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقةَ الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى اللّه تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة مال وجاه، والانفراد عن الخلق والخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف: فَلَمّا فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة).

- وقال العلامة الشيخ محمد أمين الكردي رحمه الله: (وهو عالم صوفي واعظ تعلم بالأزهر وله كتب عديدة).

(واعلم أن التصوف ويقال له علم الباطن من أجل العلوم قدراً، وأعظمها محلاً وفخراً، وأسناها شمساً وبدراً، وقد فضل اللّه أهله على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات اللّه وسلامه عليهم، وجعل قلوبهم معدن الأسرار، واختصهم من بين الأمة بطوابع الأنوار، فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق) (تنوير القلوب، محمد أمين الكردي).

ثم يقول: (وفضله أنه أشرف العلوم لتعلقه بمعرفة اللّه تعالى وحبه وهي أفضل على الإطلاق، ونسبته إلى غيره من العلوم أنه أصلٌ لها وشرط فيها إذ لا علم ولا عمل إلا بقصد التوجه إلى اللّه فنسبته لها كالروح للجسد) (المصدر السابق).

- وقال حجة الإسلام الإمام الغزالي - بعد أن اختبر طريق التصوف ولمس نتائجه وذاق ثمراته- : (الدخول مع الصوفية فرض عين، إذ لا يخلو أحد من عيب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام) (النصرة النبوية على هامش شرح الرائية، الفاسي).

- وقال أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه: (من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر).

- وفي هذا القول يقول ابن علاّن الصديقي (الشافعي النقشبندي وهو عالم فاضل متصوف، من أهل مكة مولداً ووفاة له مؤلفات كثيرة): ولقد صدق فيما قال- يعني أبا الحسن الشاذلي -فأي شخص يا أخي يصوم ولا يعجب بصومه؟ وأي شخص يصلي ولا يعجب بصلاته، وهكذا سائر الطاعات).

(إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، ابن عجيبة)

- ولما كان هذا الطريق صعب المسالك على النفوس الناقصة فينبغي للإنسان أن يجتازه بعزم وصبر ومجاهدة حتى يُطهّر نفسه من أدرانها ونقائصها وبعدها عن الله تعالى ورضوانه.

- يقول الفضيل بن عياض رحمه اللّه تعالى (وهو من كبار أهل التصوف):

(عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين، وكلما استوحشت من تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغض الطرف عن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من اللّه تعالى شيئاً، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك) (المصدر السابق).

- (وقد قال ابن زكرى رحمه اللّه متحدثاً عن التصوف:

به وصول العبد للخلاص روح العبادة بالاختصاص

وذاك واجب على المكلف تحصيله يكون بالمعروف

يعني أن علم التصوف فرض عين على كل مكلف، وذاك أن الغالب أن الإنسان لا ينفك عن دواعي الشر والرياء والحسد، فيجب عليه أن يتعلم ما يتخلص به من ذلك). (الدر الثمين والمورد المعين، محمد أحمد الفاسي)

- من كل ما سبق نجد أن التصوف يهتم بجانب مهم من جانبي الإسلام وهو جانب علم الباطن وتزكية النفس والقلب وهو جانب ضروري لا يستغنى عنه ولا يتم الإسلام ولا يكمل الإيمان إلا به.

- من هنا نخلص إلى أن هذا العلم علم التصوف الصافي والعمل به هو فرض عين على كل مسلم.

➢ ثانياً: ما السبب في أن التصوف لم يظهر إلا بعد عصر الصحابة والتابعين؟

- يجيب على هذا السؤال المهم الدكتور أحمد علوش (وهو من الرواد الأوائل الذين نقلوا حقائق التصوف الإسلامي إلى اللغات الأجنبية وكان له أكبر الأثر في تصحيح الأفكار والرد على المستشرقين [نقلاً عن الموسوعة اليوسفية ص١٦] فيقول: (قد يتساءل الكثيرون عن السبب في عدم ظهور هذه الدعوة إلا بعد عهد الصحابة والتابعين والجواب عن هذا: أنه لم تكن ثمة حاجة إليها في العصر الأول، لأن أهل ذاك العصر كانوا أهل تقىً وورع، وأرباب مجاهدة وإقبال على العبادة بطبيعتهم، وبحكم قرب اتصالهم برسول الله ﷺ، كانوا يتسابقون ويتبادرون في الاقتداء به في ذلك كله، فلم يكن ثمة ما يدعو إلى تلقينهم علماً يرشدهم إلى أمر هم قائمون به فعلاً، وإنما مثلهم في ذلك كله كمثل العربي القحّ، يعرف اللغة العربية بالتوارث كابراً عن كابر حتى إنه ليقرض الشعر البليغ بالسليقة والفطرة دون أن يعرف شيئاً من قواعد اللغة والإعراب والنظم والقريض، فمثل هذا لا يلزمه أن يتعلم النحو ودروس البلاغة، ولكن علم النحو وقواعد اللغة والشعر تصبح لازمة وضرورية عند تفشي اللحن، وضعف التعبير، أو لمن يريد من الأجانب أن يتفهمها ويتعرف عليها، أو عندما يصبح هذا العلم ضرورة من ضرورات الاجتماع كبقية العلوم التي نشأت وتألفت على توالي العصور في أوقاتها المناسبة.

فالصحابة والتابعون، وإن لم يتسموا باسم المتصوفين - كانوا صوفيين فعلاً وإن لم يكونوا كذلك اسماً، وماذا يراد بالتصوف أكثر من أن يعيش المرء لربه لا لنفسه، ويتحلى بالزهد وملازمة العبودية، والإقبال على الله بالروح والقلب في جميع الأوقات وسائر الكمالات التي وصل بها الصحابة والتابعون من حيث الرقي

الروحي إلى أسمى الدرجات، فهم لم يكتفوا بالإقرار في عقائد الإيمان، والقيام بفروض الإسلام، بل قرنوا الإقرار بالتذوق والوجدان، وزادوا على الفروض الإتيان بكل ما استحبه الرسول ﷺ من نوافل العبادات، وابتعدوا عن المكروهات فضلاً عن المحرمات، حتى استنارت بصائرهم، وتفجرت ينابيع الحكمة من قلوبهم، وفاضت الأسرار الربانية على جوانحهم، وكذلك كان شأن التابعين وتابعي التابعين، وهذه العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الإسلام وخيرها على الإطلاق، وقد جاء عن رسول الله ﷺ قوله: «خير القرون قرني هذا فالذي يليه والذي يليه» (متفق عليه).

فلما تقادم العهد، ودخل في حظيرة الإسلام أممٌ شتى، وأجناس عديدة، واتسعت دائرة العلوم وتقسمت وتوزعت بين أرباب الاختصاص، قام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يجيده أكثر من غيره، فنشأ بعد تدوين النحو في الصدر الأول علم الفقه، وعلم التوحيد، وأصول الدين، وعلوم الحديث، والتفسير، والمنطق ومصطلح الحديث، وعلم الأصول، والفرائض (الميراث) وغيرها...

وحدث بعد هذه الفترة أن أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً، وأخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال على الله بالعبودية، والقلب والهمة، مما دعا أرباب الرياضة والزهد إلى أن يعملوا هُم من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف، وإثبات شرفه وجلاله وفضله على سائر العلوم، و لم يكن ذلك منهم احتجاجاً على انصراف الطوائف الأخرى إلى تدوين علومهم - كما يظن ذلك- خطأً بعضُ المستشرقين - بل كان سداً للنقص، واستكمالاً لحاجات الدين في جميع نواحي النشاط، مما لا بد منه لحصول التعاون على تمهيد أسباب البر والتقوى) (مجلة العشيرة المحمدية عدد محرم (١٣٧٦هـ) من بحث التصوف من الوجهة التاريخية للدكتور أحمد علوش).

- كما أن أبا نصر السراج الطوسي أجاب على هذا السؤال فقال في باب الرد على من قال: لم نسمع بذكر الصوفية في القديم وهو اسم مُحْدَث:

(إن سأل سائلٌ فقال: لم نسمع بذكر الصوفية في أصحاب رسول اللّه ﷺ رضي الله عنهم أجمعين، ولا فيمن كان بعدهم، ولا نعرف إلا العبَّاد والزهَّاد والسيَّاحين والفقراء؛ وما قيل لأحد من أصحاب رسول اللّه ﷺ: «صوفيٌّ»، فنقول وباللّه التوفيق: الصُّحبة مع رسول اللّه ﷺ لها حرمة، وتخصيص من شمله ذلك، فلا يجوز أن يعلق عليه اسم على أنه أشرفُ من الصحبة، وذلك لشرف رسول اللّه ﷺ وحرمته، ألا ترى أنهم أئمة الزهَّاد والعبَّاد والمتوكلين والفقراء والراضين والصابرين والمخبتين، وغير ذلك، وما نالوا جميع ما نالوا إلا ببركة الصحبة مع رسول اللّه ﷺ، فلمَّا نُسبوا إلى الصحبة التي هي أجلُّ الأحوال استحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة التي هي أجلُّ الأحوال وباللّه التوفيق.

- وأما قول القائل: إنه اسم محدث أحدثه البغداديون، فمحال، لأن في وقت الحسن البصري رحمه اللّه كان يُعرف هذا الاسم، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول اللّه ﷺ ورضي عنهم، وقد رُوى عنه أنه قال: رأيتُ صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال: معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي).

- ورُوي عن سفيان الثوري رحمه اللّه أنه قال: (لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء) (اللمع).

- ولخص ابن خلدون في مقدمته الإجابة على هذا السؤال فقال: (وهذا العلم يعني التصوف من العلوم الشرعية الحادثة في الملّة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى اللّه تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق، والخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية).

- ويقول الشاطبي (وهو محدث، فقيه أصولي، لغوي، مفسر. لـه مؤلفـات عديدة) ناقلاً عن أبي القاسم القشيري ما يلي:

(إنهم إن اختصوا باسم التصوف انفراداً به عن أهل البدع فذكر أن المسلمين بعد رسول اللّه ﷺ لم يتسم أفاضلهم في عصرهم باسم علم سـوى الـصحبة إذ لا فضيلة فوقها ثم سمى من يليهم التابعين ورأوا هذا الاسم أشرف الأسماء ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين ثم اختلف الناس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهـم شدة عناية في الدين: الزهاد والعباد وقال: ثم ظهرت البدع وادعى كل فريـق أن منهم زهاداً وعباداً فانفرد خواص أهل السنة الراعون أنفسهم من اللّه، الحـافظون قلوبهم عن الغفلة باسم التصوف) (الاعتصام).

- من هذه النصوص السابقة، يتبين لنا أن التصوف لـيس أمـراً مـستحدثاً جديداً، ولكنه مأخوذ من توجيهات القرآن الكريم، وسيرة الرسـول ﷺ، وحيـاة أصحابه الكرام، ومن تبعهم بإحسان، ولم يظهر اسم التـصوف في عهـد الـنبي وصحابته لأن الإسلام كلٌ لا يتجزأ وقد ظهر الإسلام في حياتهم كلـها، تطبيقـاً عملياً، فلما توسعت رقعة الإسلام، وانتشر في ربوع الـبلاد المختلفـة، وحـدث الاختلاط بالأقوام الأخرى من جهة، وأخذ العلماء يتخصصون به في ميادين العلوم الإسلامية من جهة أخرى، اهتم أناس بفقه الباطن والتطبيـق العلمـي للأخـلاق والسلوك الإسلامي، والعودة بالإسلام إلى جوهره وحقيقته وأخلاقه وما كان عليه عهد النبي وصحابته وسموا بذلك تسمية تخصصية وهي الصوفية.

- ويؤيد كل ذلك ما قاله الإمام الغزالي في كتاب عوارف المعارف:

(وقيل لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة النبوية، لأن في زمن رسول اللّه ﷺ كان أصحاب رسول اللّه ﷺ يسمون الرجل صحابياً لشرف صحبة رسول اللّه ﷺ وكون الإشارة إليها أولى من كل إشارة، وبعد انقراض عهد رسول اللّـه،

من أخذ منهم العلم سمي تابعياً، ثم لما تقادم زمن الرسالة، وبعد عهد النبوة وانقطع الوحي السماوي، وتوارى النور المصطفوي، واختلفت الآراء وتنوعت الأنحاء، وتفرد كل ذي رأي برأيه، وكدر شرب العلم شوب الأهوية، وتزعزعت أبنية المتقين، واضطربت عزائم الزاهدين، وغلبت الجهالات وكثف حجابها، وكثرت العادات وتملكت أربابها، وتزخرفت الدنيا وكثر خطابها، تفرد طائفة بأعمال صالحة وأحوال سنية وصدق عزيمة وقوة في الدين، وزهدوا في الدنيا ومحبتها، واغتنموا العزلة والوحدة، واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون أخرى أسوة بأهل الصفة وتهيأ لهم صفاء الفهوم لقبول العلوم، وصار لهم بعد اللسان لسان، وبعد العرفان عرفان، وبعد الإيمان إيمان، كما قال حارثة أصبحت مؤمناً حقاً، حيث كوشف برتبة من الإيمان غير ما يتعاهدها، فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها، وإشارات يتعاهدونها، فحرروا لنفوسهم اصطلاحات تشير إلى معان يعرفونها، وتعرب عن أحوال يجدونها، فأخذ ذلك الخلف من السلف، حتى صار ذلك رسماً مستمراً وخبراً مستقراً في كل عصر وزمان فظهر هذا الاسم بينهم وتَسَمَّوْا به وسموا به، فالإسلام سمتهم، والعلم باللّه صفتهم، والعبادة حليهم، والتقوى شعارهم، وحقائق الحقيقة أسرارهم) (ملحق إحياء علوم الدين، ص٦٦).

➢ ثالثاً: التصوف المفترى عليه:

- لعل من أهم الأسباب التي جعلت كثيراً من المتأخرين يهاجمون التصوف حتى إن بعضهم يصفهم بالمبتدعين أو بالمرتدين ويشن عليهم حرباً ضروساً في أقواله وكتاباته.

- أقول: لعل من أهمها ما يرونه على بعض من تسمى باسم التصوف، والتصوف منهم بَرَاء، فهم يرون منهم استغلالاً أو انحرافاً أو كذباً، أو معاملة سيئة، أو أعمالاً شاذة، أو خروجاً عن تعاليم الشريعة، أو غير ذلك من الأمور التي لا يرضاها عاقل أو مسلم أو محب للّه ﷻ ورسوله ﷺ.

فهل ينبغي إن رأى أحد من أولئك على هؤلاء مثل هذه الأمور أن يشن حرباً على أهل التصوف جميعاً.

- إنّ المنصفين دائماً يرون أنه قد يوجد في كل جماعة أياً كانت بعض المنافقين أو المستغلين أو المنحرفين أو السيئين، وهذا لا يدفعهم إلى الحكم على الجماعة كاملة بأحكام جائرة لأن الحكم يكون على المبادئ والحقائق وليس الحكم على الشواذ من المدعين.

- وبناء على ذلك نرى أن كل ما يخالف تعاليم الإسلام وشرائعه في شيء لا تصح نسبته إلى الصوفية والتصوف وإنما هو من ضلالات المدعين الذين انتسبوا للتصوف زوراً وبهتاناً أو من الأمور المدسوسة على كتبهم بقصد الطعن في هؤلاء القوم وتشويه صورتهم ونهجهم كما حدث في كتب التفسير، فقد دُسّ فيها من الإسرائيليات ما يناقض ما عرف عن هؤلاء المفسرين من حرص على بيان الحق والبعد عن هذه المرويات الملفقة وكذلك ما جاء في بعض كتب الحديث من الأحاديث الموضوعة، وقام العلماء الأجلاء ببيانها ولذلك فإني أرى أن الهوة بين التصوف والمعارضين له نشأت من اقتناعهم بأن هذه الأقوال الباطلة هي من صميم آراء المتصوفة، ولو أنهم وضعوا الأمور في نصابها ونظروا إليها نظرة فاحصة مستبصرة لوجب عليهم ألا يلصقوا هذه الأقوال الشنيعة بهؤلاء القوم وأن يحسنوا الظن بهم وخاصة أنهم قد لقوا ربهم وأصبحوا بين يدي الله تعالى وأفضوا إلى ما قدموا.

- وإليك بعض الأمثلة على ذلك الدس والافتراء على هؤلاء القوم يقول الشيخ عبد الوهاب الشعراني في كتابه لطائف المنن والأخلاق (وهو مصري، فقيه، أصولي، محدث، صوفي، له تصانيف كثيرة):

(ومما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ صبري على الحسدة والأعداء لما دسوا في كتبي كلاماً يخالف ظاهر الشريعة وذلك لما صنفت كتاب: البحر المورود في المواثيق

والعهود وكتب عليه علماء المذاهب الأربعة بمصر وتسارع الناس لكتابته فكتبوا منه نحو أربعين نسخة غار من ذلك الحسدة فاحتالوا على بعض المغفلين من أصحابي واستعاروا منه نسخته وكتبوا لهم منها بعض كراريس ودسوا فيها عقائد زائفة ومسائل خارقة لإجماع المسلمين وحكايات وسخريات عن جحا وابن الراوندي وسبكوا في ذلك غضون الكتاب في مواضيع كثيرة حتى كأنهم المؤلف ثم أخذوا تلك الكراريس وأرسلوها إلى سوق الكتب في يوم السوق وهو مجمع طلبة العلم فنظروا في تلك الكراريس ورأوا اسمي عليها فاشتراها من لا يخشى الله تعالى ثم دار بها على علماء جامع الأزهر فأوقع ذلك فتنة كبيرة ومكث الناس يدورون في المساجد والأسواق وبيوت الأمراء نحو سنة وانتصر لي الشيخ نصر الدين اللقاني وشيخ الإسلام الحنبلي والشيخ شهاب الدين بن الحلبي كل ذلك وأنا لا أشعر فأرسل لي شخص من المحبين بالجامع الأزهر وأخبرني الخبر فأرسلت نسختي التي عليها خطوط العلماء فنظروا فيها فلم يجدوا فيها شيئاً مما دسه هؤلاء الحسدة... الخ).

- وقد ذكر ذلك أيضاً المؤرخ الكبير عبد الحي بن العماد الحنبلي في كتابه شذرات الذهب (وهو المؤرخ والفقيه والأديب، ولد في صالحية دمشق، وأقام في القاهرة مدة طويلة، وتوفي بمكة) حيث قال: (وحسده طوائف فدسوا عليه كلمات تخالف ظاهر الشرع وعقائد زائغة ومسائل تخالف الإجماع فخذلهم الله وأظهره الله عليهم وكان مواظباً على السنة ومبالغاً في الورع.. الخ).

- ومن ذلك يتبين واضحاً جلياً أن كل ما نراه في الكتب منسوباً إليهم وهو مخالف للشرع كما في الطبقات الكبرى للشعراني فهو من وضع الزنادقة وقد جاء في كتاب حقائق عن التصوف ما يلي: (وكذلك دسوا على الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله قال الشعراني: (كان رضي الله عنه مقتدياً بالكتاب والسنة ويقول: كل من رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك) إلى أن قال: (وجميع ما عارض من

كلامه ظاهر الشريعة وما عليه الجمهور فهو مدسوس عليه) كما أخبرني بذلك سيدي أبو طاهر المغربي ثم أخرج لي نسخة الفتوحات المكية التي قابلها على نسخة الشيخ التي بخطه في مدينة قونية فلم ير فيها شيئاً مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت الفتوحات...

ثم قال الشعراني رحمه الله: إذا علمت ذلك فيحتمل أن الحُسَّدَ دسوا على الشيخ في كتبه كما دسوا في كتبي أنا، فإنه أمر قد شاهدته عن أهل عصري في حقي، فالله يغفر لنا ولهم آمين).

- وذكر العلامة ابن عابدين الفقيه الحنفي وصاحب أكبر موسوعة في الفقه الحنفي أن الأرجح عنده بالنسبة لما ورد في كتب الشيخ محيي الدين بن عربي مما يخالف الشرع بأنه مفترى عليه ولذلك تجد نص عبارته: (لكن الذي تيقنته أن بعض اليهود افتراها على الشيخ قدس اللّه سره).

➢ رابعاً: حاجتنا إلى التصوف:

- لو رجعنا إلى تاريخنا القديم، التاريخ الإسلامي، لأدركنا أنّ الحاجة ماسّة إلى التصوف فهو الذي حفظ روح الدين وجوهره على مدى هذا التاريخ، وهو الذي عمل أتباعُهُ على نشر هذه الدعوة، خاصة بعد الفتوحات، فعن طريق التجارة وغيرها عمل الدعاة المتصوفة على إيصال هذا الدين إلى جميع بقاع هذا العالم شرقه وغربه شماله وجنوبه، فكانوا عاملاً هاماً في نشر هذا الدين ووصوله إلى هذه البلاد البعيدة متحملين مشاقاً قاسية صعبة لم يسهلها عليهم إلا تصوفهم الذي بنى إيمانهم المتين، وعقيدتهم الصادقة، وسلوكهم المستقيم، وإرادتهم القوية، وصبرهم الشديد، فهان عليهم ما لاقوه، وفرحوا بما بذلوه.

- (وتجدر الإشارة أن الطرق الصوفية قد قامت بنشر الإسلام في أصقاع لم تطأها جيوش المسلمين كما حصل في غرب ووسط وجنوب الصحراء الإفريقية

حيث اندفعت هذه الطرق إلى الناس في القرى والأماكن النائية تاركة الخطوط التجارية والمسالك المعروفة والمدن الكبرى، فسطرت بذلك مآثر لا ينافسها سواها في مجالها) (موسوعة التاريخ الإسلامي؛ أحمد الشلبي).

- هذا وقال شاتيلي -وهو أحد المؤرخين الغربيين وبعد أن أطال البحث والشرح في كيفية انتشار الإسلام في العالم، وبعد أن عَزَاهُ إلى مشايخ الطرق الصوفية-: (والخلاصة أن الإسلام مدين بكل فتوحاته السلمية وانتشاره في الأقطار لجماعة الصوفية، فمشايخ الطرق هم في الحقيقة الذين يديرون حركة الإسلام الحية، ولا يخفى ما في عملهم هذا من الخطر على المصالح الأوربية).

[تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي]

- والتتر والمغول اللذان لم تستطع قوة أن تقف أمامهما استطاع هؤلاء الدعاة المتصوفة إيقافهم وصدهم وإجبارهم على التراجع وذلك بفضل دعوتهم إياهم إلى الإسلام، فدخل الإسلام قلوب ملوكهم ورؤسائهم وقوادهم فأصبحوا على خير كبير بعد الشر المستطير الذي كانوا عليه والذي حملوه للشعوب المستضعفة التي حل بها العار والدمار والفناء.

- وإذا أردنا أن نعرف بعض الأعمال التي قام بها رجالات التصوف فلنستمع إلى الشيخ أبي الحسن الندوي (وهو عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ومعتمد ندوة العلماء بالهند)، يقول في بحث ((الصوفية في الهند وتأثيرها في المجتمع)):

(إن هؤلاء الصوفية كانوا يبايعون الناس على التوحيد والإخلاص واتباع السنة، والتوبة عن المعاصي، والظلم، والقسوة، ويرغبونهم في التحلي بالأخلاق الحسنة، والتخلي عن الرذائل، مثل الكبر والحسد والبغضاء، والظلم وحب الجاه، وتزكية النفس وإصلاحها، ويعلمونهم ذكر اللّه، والنصح لعباده، والقناعة والإيثار، وعلاوة على هذه البيعة التي كانت رمز الصلة العميقة الخاصة بين الشيخ ومريديه،

إنهم كانوا يعظون الناس دائماً، ويحاولون أن يلهبوا فيهم عاطفة الحب للّه سبحانه، والحنين إلى رضاه، ورغبة شديدة لإصلاح النفس وتغير الحال...).

- ثم تحدث عن مدى تأثير أخلاقهم وإخلاصهم وتعليمهم وتربيتهم ومجالسهم في المجتمع والحياة، وضرب بعض الأمثلة التي تلقي الضوء على هذا الواقع التاريخي ثم تحدث عن الشيخ أحمد الشهيد، رحمه اللّه تعالى، فقال: (إن الناس أقبلوا عليه إقبالاً منقطع النظير، وإنه لم يمر ببلدة إلا وتاب على يديه وبايعه عدد كبير من الناس، وإنه أقام في كلكتا شهرين ويقدر أن الذين كانوا يدخلون في البيعة لا يقل عددهم عن ألف نسمة يومياً، وتستمر البيعة إلى نصف الليل، وكان من شدة الزحام لا يتمكن من مبايعتهم واحداً واحداً، فكان يمدّ سبعة أو ثمانية من العمائم، والناس يمسكونها ويتوبون ويعاهدون اللّه، وكان هذا دأبه كل يوم سبع عشر أو ثماني عشرة مرة...).

- وتحدث عن شيخ الإسلام علاء الدين رحمه اللّه تعالى، فقال: (إن السنوات الأخيرة من عهده تمتاز بأن كسدت فيها سوق المنكرات من الخمر الحرام والفسق والفجور والميسر والفحشاء بجميع أنواعها، ولم تنطق الألسن بهذه الكلمات إلا قليلاً، وأصبحت الكبائر تشبه الكفر في أعين الناس، وظل الناس يستحيون من التعامل بالربا والادخار والاكتناز علناً، وندرت في السوق حوادث الكذب والتطفيف والغش..).

ثم قال: (إن تربية هؤلاء الصوفية والمشايخ ومجالسهم كانت تنشئ في الإنسان رغبة في إفادة الناس، وحرصاً على خدمتهم ومساعدتهم...).

- وقال الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه (ربانية لا رهبانية): (فلا شك أنه لولا هؤلاء ((الصوفية)) أصحاب النفوس المزكاة، الذين وصلوا إلى درجة الإحسان وفقه الباطن لانهار المجتمع الإسلامي، إيماناً روحانياً، وابتلعت موجة المادية الطاغية العاتية، الباقية من إيمان الأمة وتماسكها، وضعفت صلة القلوب باللّه، والحياة بالروح

والمجتمع بالأخلاق، وفقد الإخلاص والاحتساب، وانتشرت الأمراض الباطنة واعتلت القلوب والنفوس، وفقد الطبيب، وتكالب الناس على حطام الدنيا، وتنافس أهل العلم في الجاه والمال والمناصب، وغلب عليهم الطمع والطموح، وتعطلت شعبة من أهم شعب النبوة وبنيانها، وهي تزكية النفوس والدعوة إلى الإحسان وفقه الباطن).

- ثم بيّن الأستاذ الندوي أن تأثير هذه المواعظ، ودخول الناس في الدين وانقيادهم للشرع أدّى إلى تعطيل تجارة الخمر، وكساد سوقها في كلكتا، وهي كبرى مدن الهند، ومركز الإنجليز، وكسدت سوقه وأفقرت الخانات واعتذر الخمارون عن دفع الضرائب للحكومة، متعللين بكساد السوق، وتعطيل تجارة الخمر...

ثم قال: (إن هذه الحالة كانت نتيجة أخلاق هؤلاء المصلحين والدعاة الصوفية والمشايخ وروحانيتهم، أن اهتدى بهم في هذه البلاد الواسعة عدد هائل من الناس وتابوا عن المعاصي والمنكرات واتباع الهوى).

وفي ختام البحث قال الأستاذ الندوي حفظه اللّه تعالى: (لقد كانت هناك بجهود هؤلاء الصوفية أشجار كثيرة وارفة الظلال في مئات من بلاد الهند، استراحت في ظلها القوافل التائهة والمسافرون المتعبون، ورجعوا بنشاط جديد وحياة جديدة).

- وتحدث الشيخ أبو الحسن الندوي عن الصوفية وأثرها في نشر الإسلام بصدر حديثه عن الصوفي الشهير والمرشد الكبير سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس اللّه روحه، فقال: (وكان يحضر مجلسه نحوٌ من سبعين ألفاً، وأسلم على يديه أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى، وتاب على يديه من العيارين أو المساحة (أي: القوم ذوو السلاح) أكثر من مائة ألف، وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه، فدخل فيه خلق لا يحصيهم إلا اللّه، وصلحت أحوالهم، وحسن إسلامهم، وظل الشيخ يربيهم ويحاسبهم ويشرف عليهم وعلى تقدمهم، وأصبح هؤلاء التلاميذ الروحانيون يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة والتوبة وتجديد الإيمان، ثم يجيز

الشيخ كثيراً منهم ممن يرى فيه النبوغ والاستقامة والمقدرة على التربية، فينتشرون في الآفاق يدعون الخلق إلى اللّه، ويربون النفوس، يحاربون الشرك والبدع والجاهلية والنفاق، فتنتشر الدعوة الدينية وتقوم ثكنات الإيمان ومدارس الإحسان ومرابط الجهاد ومجامع الأخوة في أنحاء العالم الإسلامي).

(رجال الفكر والدعوة في الإسلام، أبو الحسن الندوي).

- وتحدث الشيخ أبو الحسن الندوي فقال: إنني أقول دائماً:

(لولا وجودهم وجهادهم لابتلعت الهندُ وحضارتُها وفلسفتُها الإسلامَ).

(روائع إقبال، أبو الحسن الندوي)

- وفي هذا الموضوع أيضاً يقول الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي الكاتب الإسلامي المعروف والمدرس في الأزهر الشريف:

(أرأيت إلى كنز وسيع عجيب فيه المال الغزير الذي لا يحصى وفيه أدوية الجسم الشافية التي لا تخون وفيه نور القلب الذي لا يخبو... ماذا يكون شأنك لو أن إنساناً أخبرك بوجود هذا الكنز بمكان ما ورسم لك الطريق إليه وذكر لك ما تحتاجه الرحلة من مجهود وتكاليف.. ألا تحاول أن تبذل جهدك وتستنفدَ طاقتك وتعمل وسعك حتى تصل إلى هذا الكنز الذي ستجد فيه جاه الدنيا وعز الآخرة؟. كذلك شأن التصوف يا صاح، إنه الدواء المخفي والكنز المطوي والسر العلمي، إنه الدواء الذي يحتاج إليه جسمك وفهمك وخلقك، ولكنك لن تصل إليه ولن تنتفع به حتى تتجه بمشاعرك نحوه وحتى تقبل ببصرك وبصيرتك عليه وحتى تبذل من ذات يدك وذات نفسك ومن وقتك وبحثك ما يهيّئ لك البلوغ إليه والوقوف عليه، فهل فعلت من ذلك شيئاً وقد عرفت الطريق إلى النعيم؟!..

يهمني أن تكون على بصيرة من أمرك، وأن لا تجهل شيئاً جليلاً يطالبك دينك وعقلك بأن تعرفه، ومن هنا يحتم عليك أن تدرس التصوف لتتصوره وتفهمه

وتفقهه، وبعد ذلك تحكم له أو عليه، وأزيدك بياناً فأقول لك: إنه قد يكون في التصوف وتاريخه وسير رجاله ما أضيف إليه أو افتراه المفترون عليه، ومن هنا يستتر حق وراء باطل، ومن هنا أيضاً يطالبك دينك بأن تقوم لتهتك حجاب الباطل وتستضيء بنور الحق، فهلا يكفي ذلك لتحريضك على دراسة التصوف؟؟!!

يا أبناء الإسلام!: إن التصوف يحتل من أخلاقكم وتاريخكم جانباً كبيراً وقد ضيعتموه أزمنة طوالاً، فحسبكم ما كان، وأقبلوا على التصوف، ففيه غذاء ودواء، والله الهادي إلى سبيل السواء).

(تصدير كتاب نور التحقيق، الشيخ حامد إبراهيم محمد صقر)

- وختاماً لهذا البحث نجد أن الحاجة ماسة لتعلم التصوف وتطبيق سلوكه وخاصة في هذا الزمان الذي كثرت فيه الشهوات والملذات والمبعدات عن الدين وجوهره، وعن الإسلام وأركانه، وعن الإيمان ومبادئه، وعن الأخلاق والسلوك وتعاليمه.

- حيث أصبحنا نرى المسلم يرتاد المساجد للصلاة، وربما سعى لأن يقف في الصف الأول، ونراه يتحدث بل ويجيد التحدث عن الإسلام وتشريعه، ولكننا لو راقبنا واقعه العملي في أسرته أو مع أهله أو جيرانه أو شركائه أو مع من يتعامل معهم لوجدنا الكثير من هؤلاء قد ضلوا السبيل بكلامهم أو أفعالهم، يأكلون أموال اليتامى، وأموال إخوانهم وأخواتهم، ولا يؤدون حقوق الآخرين، ويسعون في الأرض فساداً بالظلم والغش والحسد والحقد والغيبة والنميمة.

- مع هذا الواقع الأليم ألا نحتاج إلى المصلحين والمزكين والمربين الذين يأخذون بأيدي هؤلاء إلى جوهر الإسلام علماً وعملاً وتطبيقاً لشرع الله وسنة نبيه.

- فما أحرانا بأن نعود إلى العلماء العارفين والمزكين المربين، نجالسهم بأدب، ونتعلم منهم ونتأدب بآدابهم، ونتخلق بأخلاقهم، ونسلك طريقهم حتى نفوز بسعادة الدارين الدنيا والآخرة، ومن ثَمَّ نحمل هذه التعاليم وندعو إليها لتعم البلاد،

وينعم العباد، ويسود الوداد، حتى نلقى رب العباد وهو عنـــا راض ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

➢ خامساً: منهج التصوف:

- هو منهج الإسلام، منهج اتباع القرآن والسنة والسلف الصالح يعمل علـــى تزكية النفس وتطهيرها من أدرانها والوصول إلى القلب السليم وإلى الإحسان وإلى محبة الله ورسوله وإلى التقوى والورع وإلى التوكل لا التواكل وإلى الإيثار والتعاون وإلى الإخلاص والصدق والصبر والاستقامة.

- كما أنه يعمل على معالجة النفس من أمراضها كالكبر والشح والعجـــب والحسد والرياء والحقد والغش والغضب والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والبطر والخيلاء والخيانة والمكر والخداع والظلم والقسوة.

- معتمداً على وسائل كثيرة منها التوبة والاستغفار، ومراقبة اللّـــه في كـــل الحركات والسكنات والأعمال، والخوف منه ومن عقابه والإكثار مـــن الـــذكر والتسبيح والمحافظة على الفرائض والإكثار من النوافل كصلاة الليل والتهجد إلى غير ذلك من أعمال السلوك والرياضة الروحية وكل هذه المواضيع وغيرها مما يـــشتمل عليها منهاج التصوف إنما هي جزء هام من الإسلام إنها الجانب الروحـــي والفقـــه الباطني والتزكية الإيمانية والإحسان الذي هو أحد أركان الدين.

- يقول الشيخ محمد أمين الكردي شارحاً منهج التصوف: (التصوف هو علم يعرف به أحوال النفس محمودها ومذمومها، وكيفية تطهيرها من المـــذموم منـــها، وتحليها بالاتصاف بمحمودها، وكيفية السلوك والسير إلى الله تعالى والفرار إليه.

علم التصوف علم ليس يدركـــه ... إلا أخو فطنة بـــالحق معـــروف
وكيف يعرفه من ليس يـــشهده ... وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

وموضوعه: أفعال القلوب والحواس من حيث التزكية والتصفية.

وثمرته: تهذيب القلوب، ومعرفة علام الغيوب ذوقاً ووجداناً، والنجاة في الآخرة والفوز برضا اللّه تعالى ونيل السعادة الأبدية، وتنوير القلب وصفاؤه بحيث ينكشف له أمور جليلة، ويشهد أحوالاً عجيبة، ويعاين ما عميت عينه بصيرة غيره.

وفضله: أنه أشرف العلوم المتعلقة بمعرفة اللّه تعالى وحبه وهي أفضل على الإطلاق.

ونسبته إلى غيره من العلوم، أنه أصل لها وشرط فيها، إذ لا علم ولا عمل إلا بقصد التوجه إلى اللّه فنسبته لها كالروح للجسد) (تنوير القلوب، محمد أمين الكردي).

- ولقد اتبع هذا المنهج الصحابة الكرام، ومن بعدهم التابعون، وتابعوهم والسلف الصالح والعلماء العاملون، وعلى مر العصور والأيام، وما خالفهم إلا كل جاهل أو حاقد أو حاسد أو مستأجر أو منافق أو ذو أهواء وأغراض.

- فما أحرانا نحن أن نتبع هذا المنهج ونتعلمه ونحافظ عليه ونطبقه وندعو إليه، وكم نحن بحاجة إليه وخاصة في هذا الزمان.

- ولابد لسلوك هذا المنهج من اتباع المعلم المرشد، والشيخ الدال على اللّه عز وجل الذي سلك هذا الطريق وعرف كنهه وصدق فيه فأصبح مرشداً حقاً ومربياً صادقاً يستطيع أن يدل من أراد سلوك هذا الطريق إلى حقائقه والوصول به إلى نتائجه وهي معرفة اللّه المعرفة الحقيقة والعمل على رضائه والسعي إلى طاعته والسير على منهجه حتى يلقاه وهو راض عنه، وينال بذلك سعادة الدارين الدنيا والآخرة، وكذلك يحتاج هذا المنهج إلى صحبة أهله والصدق معهم حتى يتعلم منهم ويستفيد منهم.

٧- موقف التشريع الحكيم من التصوف، ورأي العلماء فيه

- إن أهم ما يزيل كل لبس أو نقد أو فكرة تعترض المسلم فيما يتعلق بموضوع التصوف، هو موقف ورأي وأقوال السلف الصالح، من العلماء الأكابر، في هذا الموضوع، فموقفهم وأقوالهم وآراؤهم في التصوف -وهم الأقرب من الشريعة وعهد النبوة زمناً وعلماً وتقديراً للأمور- هو الحكم الفصل، لا موقف وأقوال وآراء المبغضين أو الحاسدين أو المغرضين أو مدعي العلم أو غيرهم من الأبواق التي تتحدث بألسنة غيرهم دون علم أو فهم أو تبين.

- هؤلاء السلف الذين كانوا من أكابر العلماء في الفقه وغيره من العلوم الإسلامية والذين اشتغلوا وقتئذ في الدراسة والبحث والاستنباط ومع ذلك لم يمنعهم ذلك من اتباع طريقة التصوف أو مصاحبة أصحابها أو الاستفادة منهم.

- وإليك بعض مواقف السلف الصالح من التصوف من خلال أقوالهم:

➢ أولاً: الإمام مالك رحمه الله تعالى:

يقول الإمام مالك رحمه الله تعالى: (من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق).

(كتاب: الشفا للقاضي شرح ملا علي القاري).

وهذا يدلنا على أن الإمام مالك يدعو إلى الجمع بين فقه الظاهر وفقه الباطن.

ومعنى قوله هذا أي من تعلم الفقه -وهو الفقه الظاهري- ولم يتصوف أي ولم يتعلم -الفقه الباطني- فقد تفسق أي يُخشى عليه من الفسق- أي الخروج عن المقاصد الحقيقية من أحكام الشرع.

وقوله ومن تصوف -أي سار في طريق أهل التصوف-، ولم يتفقه- أي لم

يجالس علماء الفقه- فقد تزندق -أي يُخشى عليه من أن يصبح زنديقاً بعيداً عن الدين بتلبسه ببدع نتيجة جهله بالأحكام الشرعية-.

ومن جمع بين الفقه و التصوف،فقد تحقق- أي وصل إلى الحقيقة الصحيحة في فهم الدين وتطبيقه-.

➢ ثانياً: الإمام أبو حنيفة رحمه اللّه تعالى:

(نقل الفقيه الحنفي الحصكفي صاحب الدر: أن أبا علي الدقاق رحمه اللّه تعالى قال: أنا أخذت هذه الطريقة من أبي القاسم النصر أبادي، وقال أبو القاسم: أنا أخذها من الشبلي، وهو من السري السقطي، وهو من معروف الكرخي، وهو من داود الطائي، وهو أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة النعمان ﷺ وكل منهم أثنى عليه وأقر بفضله).

وهذا يدلنا أن الإمام أبا حنيفة كان صاحب علم وهو صاحب المذهب، وصاحب طريقة فقد جمع فقه الظاهر وفقه الباطن.

➢ ثالثاً: الإمام الشافعي رحمه اللّه تعالى:

(يقول صحبت الصوفية فاستفدت منهم ثلاث كلمات:

قولهم: الوقت سيف إذا لم تقطعه قطعك.

وقولهم: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

وقولهم: (العدم عصمة): أي عدم حب الظهور أمام الآخرين عصمة من الوقوع في الخطأ لأن الظهور لمن لا يحسن الظهور يكسر الظهور.

[تأييد الحقيقة العلية، جلال الدين السيوطي].

ويقول أيضاً: (حبب إلي من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والاقتداء بطريق أهل التصوف) (كشف الخفاء ومزيل الإلباس، العجلوني).

وهذا يدلنا على أن الإمام الشافعي صحب أهل التصوف وانتفع بهم وحبب إليه الاقتداء بطريقهم.

➢ **رابعاً: الإمام أحمد رحمه اللّه تعالى:**

(انظر الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية):

مر هذا الإمام بمرحلتين فيما يتعلق بالتصوف:

المرحلة الأولى: عدم ثقته بهم ويدل على ذلك وصيته لولده عبد اللّه: (يا ولدي عليك بالحديث، وإياك ومجالس هؤلاء الذين سموا أنفسهم صوفية، فإنهم ربما كان أحدهم جاهلاً بأحكام دينه).

المرحلة الثانية: الثقة بهم، والدعوة إلى مجالستهم للانتفاع بهم، ومشاورتهم والأخذ بآرائهم. وذلك عندما صاحب أبا حمزة البغدادي الصوفي وعرف أحوال القوم أصبح يقول لولده: (أيا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة).

وكان الإمام أحمد بن حنبل مع جلالة قدره إذا توقف في مسألة يقول لأبي حمزة البغدادي ﷺ: (ما تقول في هذه المسألة يا صوفي)؟ فما قال له اعتمده.

(النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي)

(ونقل العلامة محمد السفاريني الحنبلي رحمه اللّه تعالى عن إبراهيم بن عبد اللّه العلاني رحمه اللّه تعالى أن الإمام أحمد رحمه اللّه تعالى قال عن الصوفية: لا أعلم قوماً أفضل منهم، قيل إنهم يستمعون ويتواجدون، قال: دعوهم يفرحون مع اللّه ساعة) (الفروع، لابن مفلح).

➢ **خامساً: الإمام أبو حامد الغزالي رحمه اللّه تعالى:**

يقول الإمام الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) بعد أن فرغ من علوم الشريعة بكتاب «الأربعين» وعلوم الفلسفة القديمة بكتاب (مقاصد الفلاسفة)

وكذلك (التهافت) يقول واصفاً التصوف والصوفية: (ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقهم إنما يتم بعلم وعمل، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزُّه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بذلك إلى تخلية القلب من غير اللّه تعالى وتحليته بذكر اللّه وكان حينئذ العلم أيسر عليّ من العمل فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه اللّه وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى اطلعت على كنْهِ مقاصدهم العلمية، وحصلت على ما يمكن أن يحصل المرء من طريقتهم بالتعليم والسماع فظهر لي أن أخص خصائصهم لا يمكن الوصول إليه بمجرد العلم بل بالذوق والحال، وتبدل الصفات، فعلمت يقيناً أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال.

والقدر الذي أذكره لينتفع به هو أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق اللّه تعالى.

وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إلى ذلك سبيلا وإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به، فأيقنت أنهم الفرقة الناجية وماذا يقول القائلون في طريقة أول شروطها: تطهير القلب بالكلية عما سوى اللّه تعالى، وعمادها ومفتاحها الجاري منها مجرى الإحرام في الصلاة: استغراق القلب بالكلية بذكر اللّه، وآخرها: الفناء بالكلية في اللّه).